



مدينة بنغازي الليبية سنة 1896: كما وصفها الرحالة الألماني هوغو غروتا

د. سليم رجب محمد

كلية الآداب / جامعة عمر المختار البيضاء - ليبيا

The Libyan City of Benghazi 1896: as described by the German traveler Hugo Grothe
Saleem Rajab Mohammed - University of Omar Al-Mokhtar

<https://orcid.org/0009-0003-8989-4521>

saleemalhejazey@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/06/30 تاريخ المراجعة: 2026/07/03 تاريخ القبول: 2026/7/28- تاريخ النشر: 2026/08/22

ملخص:

يتناول هذا البحث الأوضاع العامة لمدينة بنغازي في أواخر القرن التاسع عشر، من خلال دراسة نقدية لتقرير الرحالة والجغرافي الألماني هوغو غروتا، الذي زار المدينة سنة 1896م، ونشر مشاهداته في مجلة Globus، ثم أعاد تناولها بصورة موسعة في كتابه Auf Türkischer Erde الصادر سنة 1912م. ويهدف البحث إلى استجلاء الأوضاع السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية للمدينة خلال العهد العثماني الثاني، مع الوقوف على طبيعة رؤية الرحالة ومدى موضوعيتها، من خلال مقارنة ملاحظاته بما ورد في كتابات رحالة أوروبيين آخرين زاروا المنطقة خلال القرن التاسع عشر. وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، إلى جانب النقد والمقارنة بين الروايات التاريخية، للتمييز بين المشاهدات المباشرة والأحكام الشخصية التي تأثرت بالخلفية الثقافية والسياسية للرحالة.

وتوصل البحث إلى أن بنغازي كانت تتمتع بموقع جغرافي مهم ونشاط تجاري متنوع، ارتبط بالأسواق المحلية والتجارة الخارجية وطرق القوافل القادمة من المناطق الداخلية وأواسط أفريقيا، إلا أن هذه المقومات لم تقتصر، وفقاً لرواية غروتا، بتطور مماثل في الخدمات العامة والمرافق الأساسية. كما أبرز التقرير مظاهر القصور الإداري وتعثر المشروعات الإصلاحية، فضلاً عن الصعوبات التي واجهت النشاط الزراعي والتجاري. وكشفت الدراسة أن كتابات غروتا، على الرغم من قيمتها بوصفها مصدراً تاريخياً، لم تخل من التعميمات والأحكام المتأثرة بالنظرة الأوروبية للمجتمعات الشرقية، فضلاً عن وجود أخطاء في بعض المعلومات المتعلقة بالرحلات الاستكشافية. وخلص البحث إلى أهمية إخضاع كتابات الرحالة الأوروبيين للنقد التاريخي، وعدم التعامل معها بوصفها شهادات محايدة بصورة مطلقة، خاصة في ظل تداخل الاهتمامات العلمية والجغرافية مع التطلعات الاستعمارية الأوروبية تجاه برقة خلال تلك المرحلة.

الكلمات المفتاحية: بنغازي، برقة، هوغو غروتا، الرحالة الأوروبيون، العهد العثماني الثاني، القرن التاسع عشر، أدب الرحلات.

Abstract:

This study examines the general conditions of Benghazi in the late nineteenth century through a critical analysis of the report written by the German traveler and geographer Hugo Grothe, who visited the city in 1896 and published his observations in the journal Globus. He later presented an expanded account in his book Auf Türkischer Erde, published in 1912. The study aims to investigate the political, administrative, economic, social, and urban conditions of Benghazi during the Second Ottoman Period, while assessing the nature and objectivity of Grothe's observations by comparing them with

the accounts of other European travelers who visited the region during the nineteenth century. The research adopts a descriptive-analytical historical approach, combined with historical criticism and comparative analysis, to distinguish between firsthand observations and personal judgments influenced by the traveler's cultural and political background.

The findings indicate that Benghazi enjoyed a significant geographical location and diverse commercial activities, supported by local markets, foreign trade, and caravan routes connecting the city with inland regions and Central Africa. However, according to Grothe's account, these advantages were not accompanied by corresponding improvements in public services and essential infrastructure. His report also highlighted administrative shortcomings, delayed reform projects, and various difficulties affecting agricultural and commercial activities. Furthermore, the study reveals that, despite their historical value, Grothe's writings contained generalizations and judgments influenced by European perceptions of Eastern societies, as well as inaccuracies concerning certain exploratory journeys. The study concludes that European travel accounts should be subjected to careful historical criticism rather than treated as entirely neutral testimonies, particularly given the intersection of scientific and geographical interests with European colonial ambitions toward Cyrenaica during this period.

Keywords: Benghazi, Cyrenaica, Hugo Grothe, European Travelers, Second Ottoman Period, Nineteenth Century, Travel Literature.

مقدمة

تمثل كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا المدن الليبية خلال القرن التاسع عشر جانباً مهماً من مصادر تاريخ ليبيا الحديث، كونها ناتجة عن الملاحظة المباشرة، ومن بين هؤلاء الرحالة يأتي المستشرق وعالم الجغرافيا الألماني هوغو غروتا (1869 – 1958) والذي قام برحلتين داخل الأراضي الليبية، تمت الرحلة الأولى ما بين سنتي 1895 – 1896م حيث استقر بمدينة طرابلس لمدة سنة وبضعة أشهر⁽¹⁾، أما الثانية فقد تمت سنة 1912م، ضمن أعمال بعثة الصليب الأحمر الألماني للإغاثة عند بداية الغزو الإيطالي، وما يعنينا هنا هو رحلته الأولى والتي كانت بالأساس موجهة نحو مدينة طرابلس، لكن غروتا استغل فرصة توجه سفينة تجارية بريطانية من ميناء طرابلس إلى ميناء بنغازي سنة 1896م ليقوم بزيارة المدينة والإقامة بها لبضعة أيام، تمكن خلالها من الوقوف عن كثب على أوضاع المدينة، ليخرج بتقريره المقتضب والذي حمل عنوان: (زيارة إلى بنغازي (برقوة)) Eine Besuch in bengasi (Cyrenaika) والذي تم نشره في نفس السنة في العدد السابع من مجلة Globus, illustrierte Zeitschrift für Länder und Völkerkunde. ثم أعاد نشره - بشيء من الإسهاب - كملحق بكتاب (الجغرافيا التركية) Auf Türkischer Erde والذي صدر سنة 1912م، ونظراً للاختلاف في محتوى التقريرين فسيتم الرجوع إلى كليهما كمصدرين أساسيين لهذا البحث. ويلقي هذان التقريران بالضوء على أوضاع مدينة بنغازي من نواح عدة؛ سياسية، اقتصادية، اجتماعية. وقد غلب على هذا التقرير مسحة من القنامة والتشاؤم سواءً من أوضاع المدينة نفسها؛ أو من حيث غياب الإصلاحات، بل ومن عدم جدواها، وهو بالتالي يقدم بنغازي وربما برقة بأسرها كمنطقة منكوبة.

لقد برزت أهمية المراكز الحضرية في (برقة) لدى الرحالة الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر وذلك لاعتبارات عديدة أهمها: حالة الغموض وقلة المعلومات حول المدن والقرى البرقاوية خلال تلك الفترة، الأمر الذي دعا المؤسسات العالمية الأوروبية لدعم البعثات الاستكشافية للعمل على جمع أكبر قدر ممكن من المشاهدات

(1) Grothe, Hugo. (1897) Von Tripolis in den Djebel Gharian. (In) Bericht der Senckenbergischen Naturforschenden Gesellschaft. Frankfurt. pp CXXXI ff.

والتقارير، لتكوين صورة أكثر وضوحاً عن تلك المناطق ، فخلال الفترات التي سبقت القرن التاسع عشر اقتصرت معرفة الأوروبيين عن مدن برقة على ما أوردته المصادر الأوروبية الكلاسيكية وكتابات الرحالة العرب⁽¹⁾. وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يتناول بيانات صادرة عن رحالة ذو خلفية علمية مكنته من دقة الملاحظة، والقدرة على التحليل، على عكس ما يرد عادة في كتابات الرحالة الهواة، أو الذين يتركز اهتمامهم حول أمور أخرى.

ونهدف من هنا البحث إلى تقديم صورة عن مدينة بنغازي وهي على أعتاب القرن العشرين، وهي صورة منقولة عن عالم ذو خبرة ورؤية علمية، لخص ما تعانيه المدينة من أزمات اقتصادية وفساد إداري، وإهمال من قبل السلطات العثمانية. كما إن من أهداف هذا البحث أيضاً مناقشة ملاحظات غروتا وتصحيح ما ورد بها من أخطاء ومغالطات، مع مقارنتها بكتابات رحالة أوروبيين زاروا المدينة خلال نفس الفترة.

1. الموقع والطبوغرافيا والمناخ

يبدأ (غروتا) تقريره عن مدينة بنغازي بقوله: "المشهد العام للمدينة لا يخلو من السحر. حتى المنظر من البحر له تأثير أسر. وخاصةً بساتين النخيل في شبه الجزيرة الممتدة غرباً، وأكوام المنازل خلفها أكثر سطوعاً، والصحراء الصخرية، وفي الخلفية البعيدة، تبدو مرتفعات الجبل الأخضر كظلال مكتئة، كل هذه التفاصيل في تداخلها تتميز بطابع فريد ساحر"⁽²⁾

إن أول ما يلاحظه (غروتا) هو عدم وجود سور يحيط بالمدينة، كما هو الحال في أغلب المدن المغاربية. وتتكون المدينة من عدد من المنازل المتراسة على شكل شبه مربع غير منتظم، ويتميز الحي الشمالي فقط بأن منازلها هي الوحيدة المطلية بألوان زاهية، وقياساً على غيرها من المدن في شمال أفريقيا فإن مباني بنغازي بشكل عام تغيب عنها اللمسات الجمالية من الزخرفة والفن المعماري، فحتى المساجد تبدو أشبه ب (أبراج حمام) متهاكة، فقط قباب المرابطين مطلية بألوان بيضاء ناصعة. أما معظم منازل المدينة فيغلب عليها اللون البني الغامق⁽³⁾، وبالإضافة إلى المنازل توجد في بنغازي بعض المباني الحكومية، مثل الثكنات العسكرية الفسيحة ذات الشكل المستطيل العريض؛ وترسانات المدافع الموضوعة في مواقع لا تستند إلى أي تخطيط استراتيجي؛ وحصن قديم ومتهاك في وسط الميناء، يُستخدم في الوقت نفسه كسجن ومقر لإدارة الجمارك ويحتوي على مساكن للضباط وكبار الموظفين⁽⁴⁾.

ثم ينتقل (غروتا) لإعطاء نبذة عن مناخ المدينة حيث يلاحظ أن المدينة تتمتع بموقع مفتوح معرض لنسمات البحر المنعشة باستمرار، مما يُتيح مناخاً ملائماً للغاية، وكان من المفترض أن تكون هذه المدينة من أصحّ البقاع الساحلية لو أن الحكومة التزمت بأبسط اللوائح الصحية. يبلغ متوسط درجة الحرارة خلال الموسم الحار 32 درجة مئوية، ويرتفع إلى 42 درجة مئوية فقط في أيام رياح القبلي. أما أدنى درجة حرارة يمكن تسجيلها فهي 4 درجات مئوية، في ديسمبر ويناير⁽⁵⁾. والمدينة معرضة دائماً لتقلبات مفاجئة في درجات الحرارة، حيث يمكن أن ترتفع الحرارة أو تنخفض 15 درجة خلال ساعتين فقط⁽⁶⁾.

(1) محمد آدم حمد آدم، مدينة بنغازي في كتابات الرحالة الأوروبيين (1817 – 1917م) ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – قسم التاريخ – جامعة عمر المختار 2025 – 2026 .

(2) Grothe, Hugo. (1903). Auf Türkischer Erde: Reisebilder und Studien. Berlin. P 185.

(3) Grothe, Hugo. (1896) Eine Besuch in bengasi (Cyrenaika) (in) Globus illustrierte Zeitschrift für Länder und Völkerkunde. Band 70. Braynschweig.. p

(4) Grothe .. Die türkischer Erde. P 186.

(5) Grothe, Eine Besuch in bengasi. P 237.

(6) يصرح غروتا بأنه تلقى هذه المعلومة من المرصد الإيطالي بالمدينة.

2. السكان

يشير (غروتا) إلى أنه لا يمكن تحديد عدد سكان المدينة بدقة، وذلك بسبب تزايد اعداد الرقيق الذين يجلبهم تجار جالو واجلة باستمرار، وهؤلاء اقاموا لأنفسهم مساكن صغيرة بجوار المدينة، ويورد (غروتا) بعض محاولات لتقدير عدد سكان المدينة من قبل بعض الرحالة الأوروبيين مثل الألماني هاينريش بارث والذي قدر عددهم بـ 10 آلاف نسمة عام 1846م والبريطاني جيمس هاملتون سنة 1852م الذي قدرهم بـ 12 ألفاً، وأخيراً الألماني غيرهارد رولفس والذي قدرهم بحوالي 15 ألفاً عام 1869. أما (غروتا) نفسه فيرى أن مجموع سكان المدينة يقارب 17 ألف نسمة؛ مشيراً إلى تعرض المدينة لموجتين من الوباء سنتي 1874، و 1894 قضتا على ما يقارب ربع السكان، ويتميز سكان المدينة بتنوع عرقي (عرب، بربر، زنوج) ولهذا فإنه - حسب رأي غروتا - من الصعب حتى على علماء الأجناس البشرية تحديد هوية عرقية للمدينة⁽¹⁾.

ولا ينقسم سكان بنغازي في الغالب حسب القبائل (العشائر)، كما هو الحال في باقي أنحاء برقة، ولكن على غرار المدن المصرية، فهم يصنفون حسب نوع النشاط الحرفي أو التجاري⁽²⁾. ويلاحظ (غروتا) أن سكان مدينة بنغازي يتميزون بالنشاط والحيوية، على عكس طابع الكسل والخمول الذي تشتهر به الشعوب الشرقية، وهم في هذا مختلفون تماماً عن سكان مدينة طرابلس، ويقول بأن لديهم طاقة لا ينقصها إلا الدعم والتوجيه من قبل حكومة رشيدة⁽³⁾.

ثم ينتقل للحديث عن اليهود المقيمين في المدينة، ومن الواضح أنهم من يحتفظون بطابع مميز، ويبلغ عدد يهود مدينة بنغازي ما بين 2000 إلى 3000 نسمة، وهم يعيشون في ظروف اجتماعية أفضل مقارنة مع باقي إخوانهم في مناطق البلاد، وهم يسكنون في أحياء مختلطة مع بقية السكان، على عكس الحال في باقي بلدان شمال أفريقيا حيث يقطن اليهود أحياء (حارات) خاصة بهم، وتتميز منازلهم بأنها أكثر نظافة وترتيباً من بقية منازل السكان، كما إنهم يهتمون بإنشاء حدائق في أفنية منازلهم⁽⁴⁾.

التجارة الداخلية والخارجية

لقد قدّم (غروتا) وصفاً مستفيضاً للسوق (البازار) المغطاة بألواح خشبية رقيقة جديرة بالملاحظة. حيث تتراكم جميع احتياجات البلاد، من سلع مستوردة ومنتجات محلية: أقمشة قطنية وحريرية بسيطة وفخمة، مزينة بالتطريز والأهداب الطويلة، كما تباع فيه أيضاً الأدوية والأعشاب الطبية وجميع مستلزمات الخيول، ويوجد أيضاً قسم خاص بالأسلحة تعرض فيه البنادق القديمة والمسدسات المزينة بالنقوش العربية، على الرغم من الحظر الصارم على تجارة الأسلحة، إلا أنها معروضة للبيع علناً - ولكل تجارة كشكها الخاص، ولكل تجارة فرعية زقاقها الجانبي؛ وبالتالي يوجد سوق للنساجين والحدادين والسراجين والحلاقين وما إلى ذلك. وفي الطرف الشرقي من المدينة يمتد فندق واسع، حيث يجتمع تجار المدينة يومياً، تُباع غالبية المنتجات التي يتم جلبها من المناطق المحيطة وتشمل هذه المنتجات العديد من حمولات الجمال من خشب الزيتون، والتي يتم استعمالها في صناعة المزاريب، وأعمدة الخيام والمحاريث. كذلك جنوع نوع من الصنوبر يُطلق عليه السكان المحليون اسم "شعرة" والتي تُستخدم، نظراً لصلابتها، في بناء المنازل كمواد للجدران والأسقف. كما تُعصر أغصان الشجرة نفسها ويستخدمها السكان المحليون لإضفاء لون أخضر على الأواني الخشبية المنزلية. علاوة على ذلك تُباع في هذا السوق كميات

(1) Grothe, Eine Besuch in bengasi, 237.

(2) لا وجود لهذا النوع من الانتماء لا في بنغازي ولا في ليبيا عموماً؛ فمن المعروف أن سكان مدينة بنغازي ينتمون إما إلى قبائلهم أو إلى مدنهم الأصلية.

(3) Die türkischer Erde. P 194.

(4) Grothe .Eine Besuch in bengasi. 238.

مدينة بنغازي الليبية سنة 1896: كما وصفها الرحالة الألماني هوغو غروتا

كبيرة من ثمار نبات "البطوم"، لتغذية الحيوانات وتسمينها⁽¹⁾، بالإضافة إلى "الزيتوني"⁽²⁾ والذي يستخدم هناك كصبغة حمراء في دباغة الفراء وصناعة الحصير، وتصدر منه كميات إلى الإسكندرية⁽³⁾.

وبما إنه قد زار المدينة أثناء أعمال جمع الملح فقد خص هذا النشاط بشرح وافٍ؛ حيث لاحظ أن الملح يتم استخراجها من السبخات المجاورة للمدينة، فيؤرّع بحضور الباشا على قبائل المدينة والمناطق المحيطة بها. وكانت كل قبيلة تحصل على حصة محددة بدقة، وكان عليها جمع كمية الملح مقابل أجرة محددة. حيث توجد في الميناء اكوام من الملح أشبه بتلال صغيرة، وفي اثناء موسم جمع الملح تشهد المدينة حركة نشطة وازدحاماً، كل ذلك من أجل الحصول على 20 بارة، ويرى أن الجهد المبذول في جمع الملح وحمله إلى الميناء كان يمكن أن يكون أكثر فائدة لو تم توجيه هؤلاء الشباب لأعمال أخرى⁽⁴⁾.

أما عن التجارة الخارجية فتتمثل في تصدير الملح الذي يُنقل في صورته الخام بواسطة سفن شرعية يونانية وتركية إلى آسيا الصغرى والقسطنطينية، ومع عائدات ملاحات كركورة يوفر للحكومة دخلاً قدره نصف مليون فرنك على الأقل. وإلى جانب صادرات الملح، فقد بلغت الصادرات من الشعير في عام 1895 370,000 قنطار، كذلك يتم تصدير كميات كبيرة من الصوف، ومعظمه يصدر كمادة خام لمدن ساحل شمال إفريقيا⁽⁵⁾.

ثم يشير (غروتا) إلى توافد السلع السودانية، ومعظمها من وادي، وهي ريش النعام بواقع 2000 كجم سنة 1895م، والعاج بواقع 170 قنطاراً فقط في عام 1895م والفراء. كما تُعد بنغازي مهمة كنقطة التقاء لصيادي الإسفنج، ومعظمهم من اليونانيين. ويقدر إجمالي حجم تجارة بنغازي، بما في ذلك تجارة العبور من وإلى السودان، والذي يتكون من الشاي والقهوة والأقمشة وخيوط الحرير بحوالي 10 ملايين فرنك سنوياً. وتأتي ألمانيا في المرتبة الأولى من بين الدول الأوروبية من حيث النشاط التجاري مع برقة، حيث تساهم بالسلع الحديدية والمعدنية والمصابيح والشموع والخزف والجواهر والشاي. وقد بلغ معدل التجارة الألمانية 727.193 جنيهاً تركيا خلال السنة المالية 1895/1894م⁽⁶⁾.

ثم يقدم (غروتا) احصائية بعدد السفن التجارية الأوروبية القادمة إلى ميناء بنغازي، حيث بلغ حجم الشحن خلال السنة المالية 1894م حوالي 477 سفينة بحمولة إجمالية بلغت 35,633 طناً. ويأتي ترتيب الجنسيات الأوروبية حسب عدد السفن كالتالي: إنجلترا 27 باخرة، وسفينة شرعية واحدة؛ تركيا 19 باخرة، 173 سفينة شرعية؛ اليونان 250 سفينة شرعية. ولم تكن إيطاليا ممثلةً بأية سفينة⁽⁷⁾.

ويلاحظ هنا أن غروتا قد أهمل تجارة المواشي والتي كانت نشطة عبر ميناء بنغازي، حيث كانت الأغنام والثيران تصدر إلى مالطا بكميات كبيرة، لدرجة أن حكومة برقة قد أصدرت قراراً بحظر تصدير المواشي، وكان يتم التحايل على هذا الحظر بتصدير المواشي إلى ميناء طرابلس ثم من هناك يتم شحنها إلى مالطا⁽⁸⁾؛ لأن قرار الحظر خاص ببرقة ولا يشمل طرابلس.

(1) Grothe. Die türkischer Erde. P 191.

(2) الزايني يعرف أيضاً باسم الروبيا أو الفوة.

(3) يشير غروتا في الهامش إلى أنه قد اقتبس هذه الفقرة من تقرير الإيطالي بينشيتي الذي زار المدينة قبل سنة واحدة.

(4) Grothe. Eine Besuch in bengasi. P 239.

(5) Grothe. Die türkischer Erde . P 188

(6) Ibid. P 193.

(7) Ibid. P 195.

(8) Grothe. Eine Besuch in bengasi. P 240.

3. النظام الإداري

يصف (غروتا) بنغازي بأنها عاصمة لولاية عثمانية (منسية) كما إن فصل برقة عن ولاية طرابلس لم يؤدي إلى نتائج المرجوة، وحاكم هذه الولاية يحمل لقب (المتصرف) ويعتبر هو الحاكم المدني والعسكري في آنٍ واحد، ويعتمد كلياً على الحكومة المركزية في القسطنطينية. إذ يتقاضى مرتباً كبيراً قدره 50,000 فرنك كراتب سنوي، ويساعده مجلس يعرف بمجلس الإدارة أو مجلس الدولة، يتكون من: المفتي، مسؤول الضرائب، وعدداً من قائمي المقام أو حكام الألوية – وهم مجرد أدوات خاضعة لإرادة المتصرف. وتتمثل مهمة المتصرف الأساسية في الحفاظ على النظام في الولاية بفضل حامية قوامها حوالي 6,000 جندي، ويتم تطبيق نوع من نظام حظر التجوال في المدينة بعد الساعة التاسعة مساءً، وبالتالي فإن من يريد الخروج لأمر طارئ يجب يحمل فانوساً إذا لم يرغب في لفت انتباه قوات الشرطة. فلدى هذه القوات أوامر صارمة بالقبض على أي شخص يُعثر عليه بدون مصدر إضاءة إلى مركز الحراسة الرئيسي باعتباره تهديداً للدولة. ويقول (غروتا) أن هذه ليست حكايات سمعها، بل حقائق عايشها شخصياً⁽¹⁾.

والمتصرف مسؤول عن جباية ضرائب الولاية بكل الوسائل اللازمة بما في ذلك استخدام القوة؛ حيث شُنّت غارة على بعض القبائل المتمردة في ربيع العام الماضي، حيث صادر الحاكم مئات الإبل من السكان. كضمانة لدفع الضرائب المترتبة عليهم رغم أن قيمة الضرائب المستحقة لا تتعدى آلاف القروش. كان الأثرياء يصطحبون دوابهم مع رعاة خاصين بهم حتى لا يسرقها الجنود أو يتركوها تموت جوعاً. أما الفقراء، فنادرًا ما رأوا جمالهم بعد ذلك. ولا يؤمن السكان بجذوى تقديم شكوى ضد الحاكم، حيث يسري بينهم قول مأثور "إسطنبول بعيدة". بالإشارة إلى المسافة بين بنغازي واسطنبول، ويمكن بسهولة إسكات المشتكين أو حتى الشهود. ويضطر كثير من المواطنين إلى دفع رشاوى لصالح كبار المسؤولين وصغارهم. ويرى أن الحاكم الحالي ليس أفضل ولا أسوأ من أسلافه؛ وإنه نموذج للباشا التركي التقليدي، وهو أمر ليس غريباً في هذه البلاد. ثم يخلص إلى القول بأنه في ظل مثل هذا النظام الإداري، من الطبيعي أن تتحول هذه الولاية التي تتمتع بكل مقومات الازدهار إلى أرض قاحلة⁽²⁾.

4. إهمال الزراعة

يشير (غروتا) إلى مدى الإهمال الذي تعاني منه الأراضي الزراعية، وكذلك عدم الاستفادة من الثروة النباتية؛ – وهو هنا يتحدث عن الجبل الأخضر وليس بنغازي نفسها – يقول أن كثير من الرحالة الأوروبيين قد صادفوا بساتين كاملة من أشجار الزيتون البري. كانت الثمار تُنتزع من الأغصان وتُرمى للماشية كعلف، ولا يُفكر السكان المحليون في إنتاج الزيت، ولا وجود لمعاصر الزيتون، كتلك التي توجد في الجزائر في كل قرية⁽³⁾. ويرى أن المسلمون بطبيعتهم لا يميلون للاشتغال بالزراعة. لأن دينهم ينص على ذلك. ثم يستشهد بعبارة يدعي أنها آية قرآنية "حيثما تذهب السكة، يسير العار بجانبها"⁽⁴⁾. ولذلك فإن العربي لا يقوم بزراعة الأرض إلا مُجبراً تحت ضغط الحاجة الملحة، ونادرًا ما يكون ذلك حُباً للأرض.

(1) Grothe .Die türkischer Erde. P 194.

(2) إحسان عباس ومحمد نجم، ليبيا في كتابات الجغرافيا والرحلات، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، ط 1، 1968 .

(3) Grothe .Die türkischer Erde. P 195

(4) لا وجود لهذه الآية في القرآن الكريم، لا بالنص، ولا بالمعنى.

والواقع أن التفسير الأقرب إلى القبول بهذا الشأن هو ما جاء في تقرير الإيطالي بينشيتي الذي زار المدينة في نفس السنة من زيارة غروتا، حيث يرى بينشيتي أن سبب إهمال السكان للزراعة يعود إلى نقص الأيدي العاملة وقلة الموارد المالية، وانعدام الدعم الحكومي⁽¹⁾.

ووفقاً لتقرير غروتا فالمزارعون هنا لا يعرفون التسميد، والتوقيت المناسب لزراعة المحاصيل، كما إنهم لا يستخدمون الأدوات الزراعية الفعالة. فهم مثلاً يكتفون بجذع شجرة كمحراث غير مُجهز حتى برأس حديدي. ويخلص (غروتا) إلى صعوبات أخرى تواجه تطور الزراعة في برقة بسبب اقتناع السكان بعدم جدواها الاقتصادية؛ حيث أن المحاصيل في النهاية ستذهب للحكومة، بالإضافة إلى خوفهم من سنوات الجفاف، كما إن الحصول على البذور يستدعي الاقتراض من التجار اليهود، وهؤلاء والذين بدورهم يشترطون الحصول على فائدة تصل إلى 60% من اصل المبلغ المقترض، ويخلص (غروتا) هذا الوضع بقوله: "إنه الحال نفسه في الجزائر وتونس، والأكثر سوءاً في ولاية طرابلس، ولكنه الأسوأ على الإطلاق في برقة"⁽²⁾.

وتلخيصاً لتردي أوضاع الزراعة يقول (غروتا): "إن فكرة واحدة تفرض نفسها مراراً وتكراراً على الرحالة الأجانب هنا، يا له من تناقض مع زمن الكتاب القدامى، الذين ذكروا أن عائدات البذور في برقة تفوق 300 ضعف، مقارنةً بالوضع الحالي"⁽³⁾.

5. أوضاع سيئة وإصلاحات بطيئة

يصور (غروتا) بنغازي - وبرقة عموماً - وكأنها مدينة معزولة عن بقية العالم. لا خطوط تلغراف ولا خدمات بريدية منتظمة تُسهّل التجارة مع الدول الأجنبية. خاصة بعد انقطاع الكابل الواصل بين طرابلس والإسكندرية، ومطالبة الشركة الإنجليزية صاحبة الامتياز (شركة التلغراف الشرقية) بأن تشارك حكومة اسطنبول أيضاً في أعمال الصيانة، ولا توجد سوى شركة واحدة متخصصة في نقل البضائع من وإلى ميناء بنغازي وهي (شركة مخصوصة إسطنبول)، والتي تديرها الحكومة التركية وتعمل على بانتظام بين القسطنطينية وكريت وبنغازي وطرابلس، وتكتفي السفن بالرسو في بنغازي كل ثلاثة أشهر تقريباً، وليس كل ثلاثة أسابيع كما هو منصوص عليه وهكذا، تبقى المدينة أحياناً بلا أخبار من العالم الخارجي لشهور متواصلة.

وبحسب (غروتا) فالوضع في العاصمة بنغازي بائسٌ كسائر أنحاء الولاية. لا توجد خدمات صحية عامة، ولا إمدادات مياه، ولا خزانات مياه كافية، ولا إنارة ولا مرافق رعاية اجتماعية كافية من أي نوع. ويضطر كل من لا يملك بئراً خاصة إلى شراء الماء بالتر بتكلفة باهظة حيث يتراوح سعر 8 إلى 10 لترات من الماء بين 24 و60 بارة، "خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها في بنغازي، بدا لي أنها قطعة من العصور الوسطى، باحتياجاتها البدائية". وقد أبدى (غروتا) دهشته وسط هذا الوضع الكارثي عندما رأى قطاراً يسير بمحاذاة الشاطئ الغربي للمدينة، مؤكداً استغرابه من وجود مثل هذا المظهر الحضاري في هذه المدينة البائسة، لكنه يستدرك أن هذا القطار مخصص فقط لنقل الحجارة من المحاجر إلى الميناء، ولا يزيد طول السكة الحديدية عن ستة كيلومترات⁽⁴⁾.

(1) فتحي علي الساحلي، توخيرة المدينة المحصنة في عيون الرحالة والمؤرخون، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ط1، 2013، ص

(2) Grothe. Die türkischer Erde. P 197

(3) Grothe. Eine Besuch in bengasi. P 240.

(4) Grothe. Die türkischer Erde. P 222.

ثم ينتقل للحديث عن ميناء بنغازي، حيث يُلاحظ تقدماً طفيفاً في عمليات الصيانة والتطوير، فقد شيدت شركة فرنسية منارةً متوسطة الحجم، ولتغطية تكاليفها، يحق لها تحصيل رسوم من كل سفينة راسية. ونظرًا لأن مدخل الميناء مسدودًا بالطمي بفعل جريان السيول في فصل الشتاء؛ فإن السفن تضطر إلى التوقف على بعد 11 كم من الشاطئ، وكانت حكومة اسطنبول قد اطلقت عدة مشاريع سابقًا بهذا الخصوص، منها إنشاء جسر على أحد جانبي الميناء، لكنها توقفت بفعل الضائقة المالية التي تمر بها الدولة العثمانية، وبمجرد اكتمال هذا الجسر، ينتظر بناء جسر ثانٍ على الجهة المقابلة. وبعد الانتهاء من ذلك، يجب إنشاء ممر للسفن بعمق كافٍ. ثم تأتي المهمة الرئيسية وهي تجريف الحوض الذي سترسو فيه السفن⁽¹⁾.

والواقع أن عمليات صيانة وتطوير ميناء بنغازي قد بدأت منذ عام 1869م وقد تحدث عنها (رولفس) أثناء زيارته للمدينة في تلك السنة⁽²⁾، وجاء هذا المشروع ضمن خطة الوالي (علي رضا باشا) الإصلاحية، وكان الهدف من تطوير ميناء بنغازي وقتها هو الاستفادة من افتتاح قناة السويس؛ بحيث يكون ميناء بنغازي حلقة وصل بين أوروبا والقناة الجديدة، والجدير بالذكر أن محاولات (علي رضا) الإصلاحية قد قوبلت بالسخرية من جانب الرحالة الأوروبيين والألمان على وجه التحديد.

6. الاستكشافات الأوروبية

لقد استهل (غروتا) تقريره بذكر عدد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مدينة بنغازي خلال القرن التاسع عشر، ومن بينهم الفرنسي (فاتير دي بوفيل)⁽³⁾ والبريطاني جيمس هاملتون⁽⁴⁾، وعدد من الرحالة الألمان مثل: هاينريش بارت⁽⁵⁾، وموريتز فون بويرمان⁽⁶⁾ وغيرهارد رولفس⁽⁷⁾. ومن خلال سرده لهذه الرحلات يتبين أن (غروتا) لا يمتلك خلفية كافية عن مسار هذه الرحلات؛ وذلك لتكرار الأخطاء في تواريخها ومساراتها، فهو مثلاً يقول بأن آخر رحلة ألماني يزور مدينة بنغازي هو غيرهارد رولفس سنة 1869م، متجاهلاً - أو جاهلاً - بأن رولفس قد زار مدينة بنغازي مرة أخرى سنة 1879م⁽⁸⁾ كذلك أسقط من حساباته الرحلات التي قام بها كل من أوغست فرويند سنة 1881م⁽⁹⁾ وغوستاف روهمر سنة 1883م و(هيرمان تاوبيرت) سنة 1887م⁽¹⁰⁾ وجميعهم من الألمان.

وقد أشار بشكل خاص إلى محاولات الرحالة التنقيب عن الآثار، أو شرائها من السكان، حيث إن كثيرين من أهالي المدينة كانوا يجدون القطع الأثرية والنقود القديمة عند حفر أساسات منازلهم، وهم يبيعونها

(1) Grothe. Eine Besuch in bengasi. P 237.

(2) Rohlf, Gerhard. (1871) Von Tripolis nach Alexandrien. Erster Band. Bremen. pp 125- 126.

(3) فاتير دي بوفيل كان يشغل وظيفة نائب القنصل الفرنسي في بنغازي، وقام برحلة إلى توكرة سنة 1847م ورحلة أخرى إلى شحات سنة 1849م، وذلك بهدف التنقيب عن الآثار وشحنها إلى فرنسا

(4) قام البريطاني جيمس هاملتون برحلتين إلى الأراضي الليبية؛ الأولى سنة 1852م انطلق من بنغازي إلى الجبل الأخضر ثم انعطف جنوباً إلى الواحات في طريقه إلى مصر عبر واحة سيوة، أما الرحلة الثانية فكانت سنة 1856م حيث وصل إلى مدينة طرابلس في مهمة يبدو أنها استخباراتية. عن الرحلة الأولى ينظر: هاملتون، جيمس. (2001) ؛ وعن الرحلة الثانية ينظر: فيرو، شارل. (1994) الحوليات الليبية من الفتح العربي حتى نهاية العهد العثماني، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي. ص

(5) يورخ غروتا هذه الرحلة خطأ بسنة 1855م، والصحيح أن هذه الرحلة قد تمت سنة 1846م.

(6) وصل الألماني موريتز فون بويرمان إلى مدينة بنغازي في فبراير سنة 1862م، وذلك في إطار رحلته إلى مملكة وادي التشادية. المصدر: مور، اتيليو. (1971) الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر. ترجمة خليفة التليسي، دار

الفرجاني، طرابلس. ص
(7) الألماني غيرهارد رولفس أكثر الرحالة الأوروبيين نشاطاً عبر الأراضي الليبية خلال القرن التاسع عشر؛ حيث قام بأربع رحلات: 1865، 1866، 1869، 1878 - 1879م.

(8) عن هذه الزيارة ينظر: Rohlf, Gerhard. (1881) Kufra. Bremen.

(9) موري. المرجع السابق. ص

(10) Durand, Ernst & Barratte, Gustav. (1910) Florae libycae. Geneva. P

مدينة بنغازي الليبية سنة 1896: كما وصفها الرحالة الألماني هوغو غروتا

للرحالة والقناصل الأوروبيين⁽¹⁾. والواقع أن تجارة الآثار التي تحدث عنها (غروتا) كانت رائجة منذ أوائل القرن التاسع عشر، وقد أشار إليها كل من الروسي (فولشوفسكي) عند زيارته لمدينة بنغازي سنة 1837م كما أشار إليها الألماني (بارت)⁽²⁾ عند مروره بالمدينة سنة 1846م.

كما أوضح أن عمليات الاستكشاف الإيطالية كانت تجري على نحو نشط خلال السنوات العشر الماضية، حيث أقامت جمعية ميلانو للاستكشاف والتجارة مقرًا لها في مدينة بنغازي، وحاول الإيطاليون إنشاء مستوطنة زراعية في ضواحي بنغازي، لكن هذا المشروع لم ينجح⁽³⁾.

ويقول (غروتا) أن السلطات المحلية قد بدأت خلال السنوات الأخيرة بفرض رقابة صارمة على تحركات الرحالة الأوروبيين، ورفضت منح تصاريح لبعض الرحالة بالسفر إلى الجبل الأخضر تحديدًا، وحتى عالم الآثار البريطاني (ويلد بلونديل) لم يتمكن من الحصول على تصريح الا بعد تدخل السفارة البريطانية في إسطنبول، وعند مغادرته ميناء بنغازي فقد خضع لتفتيش دقيق للتأكد من عدم سرقة لأية قطع أثرية⁽⁴⁾.

ومن خلال حديثه عن الاستكشافات الأوروبية يتبين أنها كانت ذات اغراض سياسية رغم التذرع بالدوافع العلمية، وهذا واضح من خلال قوله: "إن المرء يشعر بالأسف لأن هذه الأراضي الخصبة بعيدة عن فؤوس المزارعين الألمان"⁽⁵⁾، وهو هنا يستذكر المقترح الذي تقدم به مواطنه رولفس عندما دعا الحكومة الألمانية لإنشاء مستعمرة في الجبل الأخضر، وهو مقترح رفضته الحكومة الألمانية⁽⁶⁾. وكان (غروتا) قد وصف مماطلة متصرفية برقة في منح تصاريح السفر للرحالة الأوروبيين بأنها "عناد غير مبرر" ولكن بالنظر إلى دعواته هو شخصيًا وغيره من الرحالة الأوروبيين لاستعمار الجبل الأخضر فلا مجال لاستغرابه من موقف السلطات المحلية المعارض للرحلات الاستكشافية والمتشكك في النوايا الكامنة خلفها.

استنتاجات الدراسة:

يمكن استخلاص مجموعة من الاستنتاجات التاريخية التي تكشف عن الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في مدينة بنغازي أواخر القرن التاسع عشر مع مراعاة أن بعض هذه الاستنتاجات عكس رؤية الرحالة وتقييماته الشخصية وليس جميعها حقائق مستقلة مؤكدة.

- أما الاستنتاجات المتعلقة بالمصدر أو الرحلة فهي تكشف عن مدى أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين خاصة رحلة هوغو غروتا إلى بنغازي سنة 1896 بوصفها مصدر تاريخي يساعد على بناء أوضاع المدن الليبية في العهد العثماني الثاني ولاسيما في الجوانب التي لا تتوافر عنها معلومات تفصيلية في المصادر المحلية.

- تميز تقرير غروتا باهتماماته المتعددة الجوانب، إذ لم يقتصر على وصف الموقع الجغرافي والطبوغرافي ، بل تناول السكان والتجارة والنظام الإداري ، والأوضاع الزراعية والخدمات العامة، الأمر الذي يمنح تقريره قيمة تاريخية تتجاوز الوصف الجغرافي المجرد.

(1) Grothe Eine Besuch in bengasi. P 238.

(2) Barth, Heinrich. (1849) Wanerungen durch die kustenlander des Mittelmeers. Berlin.

(3) Grothe. Die türkischer Erde. P 189.

(4) Grothe . Eine Besuch in bengasi. P 237.

(5) Grothe. Die türkischer Erde. P 191.

(6) كان غير هارد رولفس قد تقدم بمقترح للحكومة الألمانية سنة 1880م يقضي بتوطين مجموعات من اليهود الألمان في الجبل الأخضر. المصدر:

Rohlfs, Gerhard. (1880) Kolonization in Cyrenaika, (in) Uncere Zeit (Journal), Zwitter Band, Leipzig, p 29.

مدينة بنغازي الليبية سنة 1896: كما وصفها الرحالة الألماني هوغو غروتا

- كما يتضح أن هوجو غروتا لم يكن مجرد ناقل للملاحظات ، بل كان صاحب موقف تقييمي من الإدارة العثمانية ، وأوضاع المجتمع المحلي ، ولذلك ينبغي التمييز بين المعلومات التي سجلها عن مشاهداته المباشرة، وبين أحكامه العامة التي تأثرت بتصويراته الأوروبية عن المجتمعات الشرقية.
- لقد أظهر البحث ان الاستعانة بتقرير غروتا المنشور سنة 1896م وبالصيغة الموسعة التي أعادة نشرها في كتاب (Auf Turkischer Rede) تتيح المقارنة بين روايتين للمصدر نفسه، والاستفادة من اختلاف محتواهما في استكمال الصورة التاريخية لمدينة بنغازي سنة 1896م.
- أشار غروتا إلى صعوبة تحديد عدد سكان بنغازي بدقة وقدرهم بمحو 17 ألف نسمة، مستعرضاً تقديرات سابقة لرحالة أوروبيين وتكشف هذه الاختلافات عن محدودية الإحصاءات السكانية المتاحة ، وعن ضرورة التعامل بحذر مع الأرقام الواردة في أدب الرحلات.
- كما تكشف الدراسة عن استنتاجات متعلقة بالتجارة الداخلية والخارجية حيث تشير إلى ارتباط اقتصاد المدينة بالأسواق الداخلية في برقة والمناطق الواقعة جنوبها ، من خلال تدفق المنتجات المحلية والسلع القادمة من المناطق الداخلية ومنها الأخشاب النباتية والمواد المستخدمة في الصناعات التقليدية.
- كما أشارت الدراسة إلى أن غروتا ربط ضعف الإنتاج الزراعي بمحدودية استخدام الأدوات الزراعية الحديثة، وعدم اتباع أساليب محسنة في الزراعة والتسميد ، غير أن البحث المقدم يقدم تفسيراً بديلاً أكثر ارتباطاً بالظروف الاقتصادية وهو ما أوردناه عن نقص الأيدي العاملة والموارد المالية وغياب الدعم الحكومي.
- كما أشارت الدراسة إلى النظام الإداري وحسب رواية غروتا فإن بنغازي كانت مركزاً إدارياً مهماً في برقة ، وأن فصل برقة إدارياً عن ولاية طرابلس الغرب لم يكن في نظره كافياً لتحقيق الإصلاحات التي كان ينتظرها من هذا التنظيم.
- كما تكشف صورة الإدارة التي قدمها الرحالة عن مركزية السلطة في يد المتصرف الذي جمع بين الصلاحيات المدنية والعسكرية مع اعتماد إدارته على الحكومة المركزية في إسطنبول ويعكس ذلك وفق روايته محدودية المشاركة الفعلية للمجالس الإدارية في صنع القرار .
- كما أبرز التقرير العلاقة الإشكالية بين جباية الضرائب والسكان، إذ أشار إلى استخدام القوة ومصادرة الإبل لضمان تحصيل المستحقات المالية وتدل هذه الرواية على أن أساليب التحصيل الضريبي كانت في بعض الحالات مصدراً للتوتر بين الإدارة والقبائل.
- كما كشف الدراسة عن أوجه القصور في الخدمات العامة والإصلاحات البنيوية في بنغازي، ولاسيما المياه والصحة والإنارة والاتصالات، وإذا اخذنا هذه الملاحظات في إطارها التاريخي فإنها تشير إلى فجوة بين أهمية المدينة التجارية والإدارية وبين مستوى الخدمات الذي وصفه الرحالة.
- كما يبرز ضعف انتظام الاتصالات البحرية والبريدية والتلغرافيا ، ووفق رواية غروتا فقد أثر في البنية الأساسية في النشاط التجاري وفي اتصال المدينة بالعالم الخارجي ، فالتجارة الدولية لا تعتمد على الميناء وحده ، بل تحتاج كذلك إلى انتظام النقل وتبادل الأخبار والاتصالات إضافة لمشاكل الميناء المتعلقة بتراكم الطمي وصعوبة دخول السفن وإهمال المشروعات المينائية ونقص الموارد المالية والتقنية لاستكمالها.

مدينة بنغازي الليبية سنة 1896: كما وصفها الرحالة الألماني هوغو غروتا

- كما كشفت الدراسة على أن بنغازي كانت موضع اهتمام متزايد من الرحالة والجغرافيين وعلماء الآثار الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ، وأن هذا الاهتمام ارتبط بوصف البلاد وبدراسة آثارها ومواردها الطبيعية وإمكاناتها الاقتصادية.
 - كما تكشف أخطاء غروتا في بعض تواريخ الرحلات ومساراتها عن ضرورة إخضاع أدب الرحلات للنقد التاريخي ، حتى عندما يكون مؤلفه متخصصاً في الجغرافيا أو يمتلك خبرة ميدانية، كما يبرز البحث وجود تداخل بين الأهداف العلمية للرحلات والمصالح السياسية الاستعمارية في بعض الاستكشافات الأوروبية ، وتكتسب هذه النتيجة أهميتها من الدعوات التي أشار إليها التقرير لإنشاء مستوطنات أوروبية في برقة ومن تصريحات غروتا بشأن الأراضي التي رأي أنها جديرة بالاستغلال الزراعي الأوروبي.
 - كما كشف البحث عن تفهم موقف السلطات العثمانية وتحفظها على منح تصاريح للرحالة الأجانب ليس بمجرد رفض البحث العلمي بل قد ترتبط أحياناً بالشك في المقاصد السياسية الكامنة وراءه .
 - وخلاصة القول أن دراستنا لهذا الموضوع كشفت أن وصف غروتا لبنغازي سنة 1896م كونها مدينة ذات موقع جغرافي متميز تجارياً وشبكات تبادل محلية وخارجية وتنوع اجتماعي وإمكانات طبيعية واقتصادية لم تكن بحسب تقييم الرحالة مستغلة على نحو كاف، وفي المقابل رسم التقرير صورة شديدة النقد للإدارة العثمانية، مركزاً على الجباية والفساد وضعف الخدمات وتعثر المشروعات الإصلاحية.
- المصادر والمراجع العربية والمُعربة**
- فتحي علي الساحلي، توخيرة المدينة المحصنة في عيون الرحالة والمؤرخون، بنغازي ، دار الكتب الوطنية، ط1، 2013
 - محمد آدم حمد آدم، مدينة بنغازي في كتابات الرحالة الأوروبيين (1817 - 1917م) ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - قسم التاريخ - جامعة عمر المختار 2025 - 2026 .
 - إحسان عباس ومحمد نجم، ليبيا في كتابات الجغرافيا والرحلات، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1968 .
 - فيرو. شارل. (1994) الحوليات الليبية من الفتح العربي حتى الاحتلال الإيطالي. ترجمة محمد عبدالكريم الوافي. منشورات جامعة قاريونس.
 - موري. اتيليو. (1971) الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا. ترجمة خليفة التليسي. دار الفرجاني. طرابلس.

Sources

- Barth, Heinrich. (1849) Wanerungen durch die kustenlander des Mittelmeers. Berlin.
- Durand, E. & Barratte, G. (1910) Florae libycae, Geneva.
- Grothe, Hugo. (1896) Eine Besuch in bengasi (Cyrenaika) (in) Globus illustrierte Zeitschrift für Länder und Völkerkunde. Band 70. Braynschweig.
- Grothe, Hugo. (1913).Auf Türkischer Erde.
- Rohlf, Gerhard. (1871) Von Tripolis nach Alexandrien. Erster Band. Bremen.
- Rohlf, Gerhard. (1880) Kolonization in Cyrenaika, (in) Uncere Zeit (Journal), Zwitter Band, Leipzig, p 29..
- Rohlf, Gerhard. (1881) Kufra: Reise Von stadt Tripolis nach auase der Kufra. Bremen.